



الرحالة شمس الدين المقدسي أكبر جغرافي عرفته البشرية

أ. أشرف عرب

كاتب صحفي

كتب «لاروس» الفرنسي في دائرة معارفه عن جغرافية العرب يقول⁽¹⁾: «إذا أراد القارئ أن يجد في القرن الحادي عشر عجيبة من العجائب الجغرافية فلا يبحث عنها في أوروبا التي صارت بربرية؛ ولكن ليبحث عنها عند العرب».

و حين يجمع الباحثون - من عرب ومستشرقين - على أن عملاً بعينه مميز، فإن إجماعهم يكتسي أهمية بالغة، وحين يؤيد البحث العلمي هذا الإجماع؛ فإن هذا العمل يصبح أكثر قيمة وأدعى للاحترام، ومن الأعمال القليلة التي نالت هذا الشرف كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» للمقدسي، فقد نال - وما زال ينال - هذا الكتاب إعجاب وتقدير كل من تعاملوا معه، نظراً لما تميز به من جدة وطرافة.

(1) محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن الرابع عشر، المجلد الثالث عشر، القاهرة سنة 1386هـ 1967 م ص 122.

يرى « اشبرنجر»⁽¹⁾ أن المقدسي «أكبر جغرافي عرفته البشرية قاطبة» ولم يسبقه شخص في اتساع مجال أسفاره، وعمق ملاحظاته وإخضاعه المادة التي جمعها لصياغة منظمة، ويراه المستشرق الهولندي «كرامرس»⁽²⁾ أكثر الجغرافيين العرب أصالة، ويرى المصنف واحداً من أكثر المصنفات الجغرافية في الأدب العربي قيمة، ولا يملك الروسي «كراتشكوفسكي»⁽³⁾ إلا الاعتراف له بالأصالة والطرافة وقوة الملاحظة، ويعتبره «جغرافياً عظيماً، وواحداً من كبار الكتاب العرب قاطبة».

ويعدّ «لي سترنج»⁽⁴⁾ كتاب المقدسي «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» «أعظم من كل ما صنعه البلدانيون العرب، وأكثرها أصالة»، وهو عند الدكتور شوقي ضيف «طرفه حقيقية» وشريط سينمائي، يعرض علينا سكان العالم بكل خصائصهم وصفاتهم، ويرى الدكتور نقولا زيادة أن الكتاب «نموذج للكتاب العلمي المرتب المنظم المبوب المقسم».

أما المستشرق الفرنسي ريجي بلاشير فيرى في كتابه «مقتطفات من أهم الجغرافيين العرب في العصور الوسطى»، أن كتاب المقدسي أساسي لمعرفة العالم الإسلامي في تلك الفترة، ونظراً لما كان يتمتع به من حب استطلاع يقظ دوماً، ومن روح تسامح فريدة تماماً، وبقدرة نادرة على الفهم، فقد نتج عن كل تلك المزايا المذكورة أن أصبح كتابه وصفاً بديعاً للعالم كما رآه في تعقيده الحي.

(1) ألويس اشبرنجر: مستشرق نمساوي الأصل، تجنس بالجنسية الإنكليزية، «1813 - 1893».

(2) المستشرق الهولندي «كرامرس» «1891 - 1951».

(3) إغناطيوس كراتشكوفسكي: مستشرق روسي «1883-1951»، أحد مؤسسي مدرسة الاستشراق الروسي.

(4) لي سترانج: مستشرق إنكليزي (1854-1934م) تخصص بدراسة التاريخ الجغرافي لبلاد العرب وفارس.



وقد أعاد المستشرق دي خويه⁽¹⁾ عام 1906 نشر كتاب المقدسي، وطبعه في مدينة ليدن (جنوب هولندا)، كما استفاد الجغرافي الألماني فالتر كريستالر من دراساته عندما وضع نظريته في التوزيع الجغرافي للمراكز العمرانية في جنوب ألمانيا في النصف الأول من القرن 20.

وحسب إبراهيم سعيد في كتابه «إسهامات المقدسي في الجغرافية والدراسات الإقليمية»، فإن المقدسي يترأس مرحلة النضج في الدراسات الجغرافية إلى جانب علماء آخرين؛ مثل الاصطخري والبلخي والهمداني والمسعودي وابن حوقل البغدادي، كما تمكن المقدسي من رصد العالم الإسلامي في القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي بشكل دقيق وحيّ.

ويضيف سعيد إن «للمقدسي مكانة متميزة في الجغرافيا العربية لم يجارِه فيها أحد من الجغرافيين العرب أو غير العرب في العصور الوسطى والحديثة، خاصة فيما أبدعه في دراسة الأقاليم أو في المنهج الإقليمي».

مولد المقدسي ونشأته:

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي البشاري، ولد سنة (335هـ - 947م)⁽²⁾ بيت المقدس لأب مقدسي، ومن هنا اشتهر بالمقدسي، وأم ذات أصول فارسية تنتمي إلى آل الشوا الذين تعود جذورهم إلى مدينة بيار التابعة لمنطقة قومن قرب خراسان، وكان لهذا الاختلاط العرقي أثره في توجهاته، وقد دعاه ياقوت الحموي في القرن 13م «البشاري»، والمقدسي حفيد لبناء اشترك في

(1) مَحْيِل دِخْوِيَه: مستشرق هولندي (1836-1909 م) كان من أعضاء المجمع الشرقي في ليدن، من آثاره تحقيق ونشر كتب في الجغرافية العربية لليعقوبي والبلاذري.

(2) لم يصرح المقدسي بالعام الذي ولد فيه صراحة، ولكن ذكر أنه ألف كتابه عام (375هـ - 985م)، بعد أن بلغ سن الأربعين، ومن ثم يكون مولده عام (335هـ - 946م).

بناء مدينة عكا في عهد الدولة الطولونية.

وكما ذكر المقدسي في كتابه، فإن والدته تنتمي إلى آل الشوا الذين هاجروا إلى فلسطين، ويروي المقدسي بكثير من الفخر بعض إنجازات جدّه، كما تدل أسئلته المتوالية لعمّه في هذا المجال على أنه كان منتسباً إليه، كما أن ميول المقدسي اتضحت جلية حين كان يناقش بنائي الأماكن التي يزورها في مسائل فنية.

وثمة مواضع كثيرة يذكر فيها خاله عبد الله الشوا، وجدّه أبا الطيب الشوا، كما يطنب في وصف بيار وأهلها - حيث مكث أربعة أشهر - معللاً هذا الإطناب بأن أحواله منها.

الترحال

بدأ المقدسي رحلته من مدينة القدس إلى الحجاز في بداية عام 356هـ - 966م، لغاية الحج، ثم طاف بالعراق والجزيرة والشام ومصر والمغرب، وزار أقطار العجم وبدأها بإقليم المشرق ثم الديلم والرحاب والجبال وخوزستان وفارس وكرمان والسند.

انتقل شمس الدين أبو عبد الله المقدسي من بيت المقدس إلى بغداد، يدرس على علمائها ويلتزم دور الكتب فيها، واستهوته الجغرافيا فانصرف إلى مراجعة ما ألف فيها وصنّف، ووصف ما شاهده أثناء جولاته.

أمضى المقدسي سنوات طويلاً من عمره يتجول في أنحاء العالم الإسلامي ويجمع المعلومات لكتابه، فزار العراق والجزيرة «آقور» ومصر وجزيرة العرب والشام وبلاد فارس وأقطار المغرب العربي، لذلك جاء كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» مثلاً يُحتذى به في الكتابة الجغرافية المتقنة.

كان المقدسي يعمد في رحلاته إلى التنكر، وتغيير اسمه، والدخول في الطوائف المختلفة كي تسنح له الفرصة لدراسة بيئاتها، والوقوف على عاداتها وأحوالها، وخاطر بحياته عدة مرات، ما اضطره لتغيير اسمه من إقليم إلى آخر؛ ليضمن سلامته، ويتمكن



من الوصول إلى المعلومة، حتى زادت ألقابه على 30 لقبًا، يقول المقدسي: «وقد سُميت بستة وثلاثين اسمًا دُعيتُ وخوطبتُ بها مثل: مقدسي وفلسطيني ومصري ومغربي وخراساني وسلمي ومقريء وفقهه وصوفي وولي وعابد وزاهد وسيّاح وورّاق ومجلد وتاجر ومذكر وإمام ومؤذن وخطيب وغريب وعراقي وبغدادي وشامي وحنيفي ومتؤدب وفقهه ومتعلم وفرائضي وأستاذ ودانشومند وشيخ ونشاسته وراكب ورسول، وذلك لاختلاف البلدان التي حلتها، وكثرة المواضيع التي دخلتها».

استخدم المقدسي طرقًا لتمثيل الظاهرات الجغرافية المختلفة فرسم، على حد قوله: «طرقها المعروفة بالحمرة، وجعلنا رمالها الذهبية بالصفرة، وبحارها بالخضرة، وأنهارها المعروفة بالزرقة، وجبالها المشهورة بالعبرة ليقرب الوصف إلى الإيفهام».

واعتمد المقدسي في منهجه على الخبرة والمشاهدة الشخصية والاستقصاء والسماع والاهتمام بالخارطة ضمن المتن والاعتماد على المراجع الموثوقة، فضلًا عن جولاته الميدانية ولقائه العلماء ومجالسة القضاة ودرسه على الفقهاء ومزاولته التجارة في البلدان التي زارها، فأتقن مساحة الإقليم بالفرسخ وعرف الأجناد وبحث وأحصى الخراج.

يقول المقدسي في كتابه: «اعلم أي أسست هذا الكتاب على قواعد محكمة، وأسندته بدعائم قوية وتحريت جهدي الصواب، واستعنت بفهم أولي الأبواب...».

فكان المقدسي يتوخى الدقة فيما يكتب وأن يكون البحث مبنياً دائماً على الدرس والاختبار وأن يكون منظماً ومبوّباً، وأفيًا في معلوماته بحيث لا يخلط بين العمل الجاد ونقيضه، لذلك عدّ «آدم متز»⁽¹⁾ كتابه ذروة ما وصلته كتب الجغرافية العربية من تقدم في وصف البلدان.

(1) آدم متز: (1869-1917م) مستشرق سويسري ألماني، اهتم بالأدب العربي في القرن الرابع الهجري وما تلاه.

إن شخصية المقدسي ممثلة تمثيلاً جيداً في كتابه، وربما كان هذا الحضور الدائم سبباً في انعدام أية إشارة لحياة المقدسي في كتب التراجم المعاصرة والتالية له، اكتفاء بالمعلومات التي أوردها عن نفسه، أو لأن إنتاجه العلمي المعروف لم يتعدّ كتابه هذا، وهذه ظاهرة يشترك فيها معظم الرحالة الجغرافيين السابقين والتالين للمقدسي.

ولما كان المقدسي رجلاً أراد التفقه - على حد قوله - فقد فتش في المذاهب السائدة آنذاك، وبعد طول نظر، قرر أن يتفقه للمذهب الحنفي، وأن يقرأ لعبد الله بن عامر، وقد كان لهذا التوجه أثره الخطير في تحديد مسار حياة المقدسي، كما ظهر هذا الأثر جلياً في كتابه.

إن المقدسي كفانا مؤونة وصف شخصيته، إذ أورد في غير موضع آراء معاصريه فيه، ولعل القطعة التي يذكر فيها ما عاناه أثناء رحلاته تعدُّ من أروع ما سطر قلم المقدسي، سواء من حيث طرافتها، أو تعبيرها عن شخص المقدسي، ولذلك فقد تُرجمت مفردةً إلى اللغات: الهولندية والألمانية والإيطالية والروسية والفرنسية والإنكليزية بين عامي 1875 - 1946، وهي تحت عنوان: «ذكر ما عاينت من الأسباب».

ويؤخذ على أسلوب المقدسي ميلٌ إلى السجع المتكلف أحياناً، مما جعل المستشرقين يجدون صعوبة في فهمه، حتى إن كراتشكوفسكي المستشرق الروسي الذي يجيد العربية يقول فيه: «ولعل لغة المقدسي وأسلوبه ينتميان لا إلى أعسر أساليب هذه المدرسة فحسب، بل إلى أعسر أساليب مكتبة الجغرافيين العرب.. ويحفل متن المقدسي بالألفاظ الصعبة قليلة الاستعمال، لأنه كان يميل بعض الشيء إلى غريب اللغة».

مفهوم الإقليم وأسلوب دراسته عند المقدسي

أوضح المقدسي أن الأرض كروية وأن خط الاستواء يقسمها إلى قسمين متساويين، وقسّم محيطها إلى 180 درجة «90 درجة في الشمال ومثلها في الجنوب»، وأن معظم



النصف الجنوبي مياه ومعظم القسم الشمالي يابسة.

وقد تمسك المقدسي بالسبعيات في تقسيم الأقاليم، ويرجع ذلك - كما يقول - إلى: «إن الله عزَّ اسمه خلق السماوات والأرض سبعا سبعا، والأيام والليالي سبعا سبعا والأرزاق من سبع، ونزل القرآن على سبعة أحرف، والمساجد سبعة».

اعتمد المقدسي في تقسيمه لأقاليم العالم على ما كان سائداً، ويعترف بذلك ويقول: «اعلم أن كل مصنف في هذا الباب جعل الأقاليم أربعة عشر، سبعة ظاهرة عامرة، وسبعة خراباً، وسمعت بعض المنجمين يقول الخلق كلهم في المغرب.... ونحن نقل منها وعن مَنْ لقينا من كبراء المنجمين هذا الباب، لأنه علم يحتاج إليه في سمت القبلة».. ثم يبدأ المقدسي في تتبع الأقاليم السبعة التي يعتمد تحديدها على أساس طول الظل إذا استوى الليل والنهار، وذلك وقت الظهيرة، فالإقليم الأول: أوله حيث يكون الظل نصف النهار إذا استوى مع الليل قدمًا واحدة ونصفًا وعشرًا وسدس عشر قدم، وآخره في هذا الوقت قدمان وثلاثة أخماس.. والإقليم الثاني أوله حيث يكون الظل إذا استوى الليل والنهار، كما قلنا، عند الظهيرة قدمين وثلاثة أخماس.

وبعد أن يتتبع المقدسي تحديد الأقاليم السبعة ويحدد أطوالها وعرضها بالفراسخ، يتناول ذكر مملكة الإسلام معتمدًا على أسس جديدة، متحررًا من نظرية تقسيم المعمورة إلى النطاقات العريضة المرتبة من الجنوب إلى الشمال في موازاة خط الاستواء، والتي التزم بها في تقسيمه للعالم على أساس ما كان سائداً، حتى لا يخرج عما كان مألوفًا ومتعارفًا عليه آنذاك.

ويتناول المقدسي ذكر مملكة الإسلام فيقول: «اعلم أن مملكة الإسلام، حرسها الله تعالى، ليست بمستوية، فيمكن أن توصف بتربيع أو طول أو عرض، إنما هي متشعبة، يعرف ذلك من تأمل مطالع الشمس ومغاربها ودوخ البلدان وعرف المسالك ومسح

الأقاليم بالفراسخ» ثم يحاول المقدسي تحديد أبعادها بالفراسخ تارة، وبالمرحل والأيام تارة أخرى».

ومما تجب الإشارة إليه أن الاتجاه إلى وصف العالم الإسلامي والاقتصار عليه قد بدأ كاتجاه جديد في القرن العاشر الميلادي.. ويصف «كراتشكوفسكي» هذا الاتجاه بالمدرسة الكلاسيكية لجغرافي القرن العاشر الميلادي.. ويقول: «إن هذا النمط من المصنفات الجغرافية الذي يرجع في الأصل إلى وصف العالم الإسلامي، وضعه رجل أصله من بلخ ويقصد بذلك «أبا زيد البلخي»⁽¹⁾ وأخذه عنه وأضاف إليه عالم من ولاية فارس بإيران، ويقصد بهذا العالم «أبا إسحق الفارسي الاصطخري»⁽²⁾ وتأثر به «أبو القاسم بن حوقل» والذي قابل الاصطخري سنة 340هـ/ 951م، وقد اهتم ابن حوقل بوصف دار الإسلام.

وقد قسّم المقدسي «مملكة الإسلام» إلى أربعة عشر إقليمًا، ستة منها عربية هي «جزيرة العرب، العراق، آقور، الشام، مصر، المغرب»، وثمانية للعجم هي: «المشرق، الديلم، الرحاب، الجبال، خوزستان، فارس، كرمان، السند»، ويعلل المقدسي اقتصاره في كتاب «أحسن التقاسيم» على ذكر الأقاليم الإسلامية وعدم دراسته لبقية أجزاء العالم أو أقاليم الكفار بقوله: «لم ندخلها ولم نر فائدة من ذكرها، بل قد ذكرنا مواضع المسلمين فيها».

وقد حدّد المقدسي كل إقليم من الشمال والجنوب والشرق والغرب، والملاحظ على تقسيم المقدسي أنه اعتمد على الدين كرابطة للأقاليم التي تناولها، وبذلك حلّ الدين محل طول الظل، ثم اعتمد على اللغة فقسّم الأقاليم الإسلامية على أساسها إلى

(1) أبو زيد أحمد بن سهل البلخي: ولد عام 850م في مقاطعة بلخ، خراسان الكبرى.

(2) أبو اسحق الفارسي الاصطخري المعروف بالكرخي.



أقاليم عربية، وأقاليم العجم، ثم اعتمد في تقسيمه الأقاليم العربية على أساس إداري أو سياسي، فالإقليم عند المقدسي رقعة حددت على أساس ديني ولغوي وإداري، إذ إن العالم الإسلامي فسيح المساحة يضم في رحابه ظاهرات مختلفة، فكان لابد من التقسيم إلى أقاليم حتى يمكن إدراك ما بها من ظاهرات طبيعية وبشرية قد تتشابه أو تتباين.

ويدافع المقدسي عن تقسيمه أحياناً بالمقارنة مع التقسيمات المختلفة فيقول: «فإن قال قائل لم جعلت اليمن والمشرق والمغرب جانبيين جانبيين قيل له: أما اليمن فالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جعلها حيث فرق مواقيتها في الإحرام، وأما خراسان فإن أبا زيد جعلها إقليمين وهو إمام في هذا العلم، وخاصة في إقليمه، فلا عيب أن جعلناها جانبيين، فإن قال فلم خالفته بعد ما نصّبته إماماً، فصيرت خراسان إقليمياً واحداً قيل له: لنا في هذا جوابان: أحدهما أننا لم نحب أن تفرق مملكة آل سامان.. والجواب الثاني أن أبا عبد الله الجيهاني⁽¹⁾ أيضاً إمام في هذا العلم وهو لم يفرق خراسان.

وقد قسم المقدسي الإقليم إلى كور، ثم لكل كورة قسبة، ثم لكل قسبة مدن، ويقول أعلم أننا جعلنا الأمصار كالمملوك، والقصبات كالحجاب، والمدن كالجند والقرى كالرجال.

مصادر المقدسي في دراسته الإقليمية:

يقسم المقدسي مصادره في دراسته لأقاليم العالم الإسلامي إلى ثلاثة أقسام، كانت على حد قوله: أحدها ما عايناه، والثاني ما سمعناه من الثقات، والثالث ما وجدناه في الكتب المصنفة.

ويقصد بالمصدر الأول «ما عايناه» الدراسات الميدانية المبنية على المقابلة وما تم جمعه بعد الجولات في البلدان، ودخول الأقاليم الإسلامية ومعايشة أهلها، ولقاء العلماء

(1) أبو عبد الله محمد بن نصر الجيهاني، كان وزيراً للأمير من أمراء السامانيين.

ومجالسة القضاة والدرس على الفقهاء والاختلاف إلى الأدباء.

أما بالنسبة لقوله «ما سمعناه من الثقات» فيذكر المقدسي: «سؤال ذوي العقول من الناس، ومن لم أعرفهم بالغفلة والالتباس عن الكور والأعمال في الأطراف التي بعدت عنها ولم يتقدر لي الوصول إليها، فما وقع عليه اتفاقهم أثبتته، وما اختلفوا فيه نبذته... وما لم يقر في قلبي ولم يقبله عقلي أسندته إلى الذي ذكره أو قلت زعموا».

وقد اطلع المقدسي على كثير من الكتب وقرأها قراءة فاحصة، وانتقدها جميعها، ولم يسلم كتاب واحد من عيب أو نقيصة يراها فيه المقدسي، وعلى سبيل المثال، يذكر المقدسي: «وأما ابن الفقيه الهمداني فإنه سلك طريقة أخرى ولم يذكر إلا المدائن العظمى ولم يرتب الكور والأجناد وأدخل في كتابه ما لا يليق به من العلوم، وأما الجاحظ وابن خرداذبة⁽¹⁾ فإن كتابيهما مختصران جداً لا يحصل منهما فائدة كثيرة».

أسلوب الدراسة الإقليمية عند المقدسي:

انفرد المقدسي باتجاهات جديدة في دراسة الأقاليم، إذ إنه حاول جاهداً في معالجته لكل إقليم أن يبرز شخصيته، وهذا ما تسعى إليه الجغرافيا الحديثة، فهو يذكر: «أظرف الأقاليم العراق وهو أخف على القلب، وأحد للذهن... وأشدّها حرّاً وقحطاً ونخيلاً جزيرة العرب، وأكثرها عبادةً وقراء وأموالاً ومتجرّاً وخصائص وجوباً مصر».

ويبدأ المقدسي في دراسة أقاليمه بالاتجاه التقليدي الذي كان سائداً آنذاك، أو ما يمكن أن نسميه بالجغرافيا الفلكية، ويبدأ المقدسي في معالجته من «الكل إلى الجزء» أو ما يعرف بالطريقة الكلية، حيث يبدأ بوصف الكرة الأرضية، ثم أقاليمها السبعة ويحددها، ثم يحدد مملكة الإسلام فيقسمها إلى أقاليم عربية، وأقاليم عجم.

ويبدأ اهتمام المقدسي بالجانب الديني بوضوح، وقد بدأ دراسة أقاليمه بـ«جزيرة

(1) هو أبو القاسم عبيد الله بن خرداذبة، ولد في خراسان سنة 205هـ، وقيل إنه ولد سنة 211هـ.



العرب» لأن بها بيت الله الحرام، ومدينة النبي عليه السلام، ويذكر المقدسي قبله كل إقليم، ويذكر المذاهب والذمة، ويمكن أن يندرج اهتمام المقدسي بذكر كل ما يتعلق بالنواحي الدينية مع توزيع ذلك على الأقاليم المختلفة تحت ما يُسمى بالجغرافيا الدينية.

وقد تعددت الجوانب الجغرافية التي يتحدث عنها المقدسي في تناوله كل إقليم من أقاليم العالم الإسلامي وما فيها من المنافذ والبحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألوانهم، ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم، ونقودهم وصر وفهم وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم، ومعرفة محاسنهم وعيوبهم وما يُحمل من عندهم وإليهم، وذكر مواضع الأخطار وعدد المنازل في المسافات، وذكر السباح والصلاب والرمال والتلال والسهول والجبال.. ومعادن السعة والخصب، ومواضع الضيق والجذب وذكر المشاهد والمراصد والخصائص والرسوم والممالك والحدود، والتخوم والصنائع والعلوم والمباحس والمشاجر والمناسك والمشاعر».

ولو صنفنا هذه الجوانب لوجدناها تشمل جميع فروع الجغرافيا الحديثة حاليًا، إلا أن المقدسي لا يلتزم بتغطية جميع هذه الجوانب التي ذكرها عند دراسته لكل إقليم.

ولعل أبرز ما ابتكره المقدسي في دراسته للأقاليم هو محاولة إبراز شخصية كل إقليم بعد دراسته في خلاصة موجزة تحت عنوان «جمل شؤن هذا الإقليم» وأهم ما تشتمل عليه هذه الخلاصة عادة، إبراز أهم سمات المناخ من حيث الحرارة والمطر، والمذاهب الدينية السائدة، وأهم اللغات واللهجات السائدة، والقراءات الشائعة، والتجارات والأسواق وأهم السلع ومزاياها، والمكاييل والموازن المتداولة، والنقود وأنواعها والأزياء، ويتناول كذلك المياه ومصادرها المختلفة مع المقارنة بينها، ويتناول

المضار الصحية التي يتعرض لها الإنسان في هذا الإقليم، ويتكلم عن الثروة المعدنية، والمشاهد، الأماكن، ذات الشهرة التاريخية ثم يتكلم عن الأخلاق، وتوزيع القبائل وخصائص كل قبيلة ثم يتكلم عن الضرائب والمكوس، ثم يتتبع الطرق والمسافات بين المدن المختلفة. ويمكن أن تصنف المادة الجغرافية الهائلة متعددة الجوانب التي وصف بها المقدسي «أقاليمه» إلى فرعين أساسيين، هما الجغرافيا الطبيعية والجغرافيا البشرية.

المقدسي والجغرافيا البشرية

اهتم الجغرافيون المسلمون بالجوانب البشرية اهتماماً كبيراً، حيث لا نجد أي فرع من فروع الجغرافيا البشرية المعاصرة؛ إلا وكتب فيه الجغرافيون المسلمون، وتناول المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» الأقاليم الإسلامية من حيث اختلاف أهل البلدان في كلامهم وألستهم «جغرافيا لغوية» ومكاييلهم وموازينهم وما يحمل عندهم وإليهم «جغرافيا تجارية» وشرابهم وثمارهم وزروعهم «جغرافيا زراعية» ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم ومساكنهم وأزيائهم «جغرافيا حضارية»، وتناول كذلك المذاهب والقراءات «جغرافيا دينية»، ووصف المدن من حيث الموقع وحالة الهواء والتخطيط والسكان «جغرافيا المدن».

يعد التعريف بماهية العلم موضوع التأليف مدخلاً طبيعياً للمؤلف، وهو من الأهمية بحيث يحكم نظرة المؤلف، ويتحكم في توجهاته، كما أنه بمثابة الأساس الذي يورث العمل قوة أو ضعفاً حسب طبيعته، والمقدسي بنظرته الشاملة الكلية لم تفته هذه الملاحظة، فكان همُّه في مواضع كثيرة أن يبين ماهية هذا العلم الذي يكتب فيه وإن شاب نظره شيء من الغرور والفخر، معتقداً في كتابه - وفي نفسه - السبق والابتكار، وانعدام النظرير.

ويحدد المقدسي الاسم الدقيق للعلم الذي يكتب فيه بأنه علم أو فن «ذكر الممالك أو



الأقاليم الإسلامية وما فيها»، أي علم وصفها على ما هي عليه، وهو حين يطبق هذا المفهوم، تصادفه عقبات متنوعة، فيضطر إلى استخدام رأيه، حتى يستقيم له ما يتغيه، ولكن ينبه على أن تلك التقسيمات التي يتكرها تقوم بوظيفة محددة، تتفق مع مفهوم أبي زيد البلخي الذي يعده المقدسي إمامه، ويعجب أياً إعجاب بقوله: «ليس في جمع هذه الأطراف بعضها إلى بعض ولا في تفريقها كبير درك، غير الإبانة عما في أعراضها من المدن والأنهار، وسهولة العبارة في التفصيل والصور»، ثم يعلق قائلاً: «ولعمري لقد صدق، ليس فيه إبطال حق ولا إثبات، ألم تعلم أن صدور الأمة قد رأوا آراء، وقدموا وأخروا، وورثوا، وأحلّوا وحرّموا وجوّزوا وأبطلوا، وتلقاه الناس بالقبول، وسكنت إليه قلوبهم، ولم ينكر هذا عليم عاقل، بل أمر به النبي صلّى الله عليه وسلم معاذاً لما بعثه إلى اليمن، وعمل به الصحابة؟ فلا عجب أن نرى نحن أيضاً في هذا العلم آراء، ويكون لنا فيه قياس واختيار».

إن انتباه المقدسي إلى ضرورة الوصف الآني الواقعي الذاتي يجذب كتابه إلى محيط الأدب، وإن ظلّ محتفظاً بسمته الأساسية، وهي أنه كتاب في «الجغرافيا»، وقد أعلن المقدسي نفسه «أن العلم في هذا الباب عندنا أوسع من أن نكرره، أو نقله من كتاب، أو نسرقه - إلا أن يضيق بنا الأمر، أو تلحقنا ضرورة».

عموماً يتميز كتاب المقدسي بخاصيتين مهمتين:

- 1 - أتباعه لنهج علمي صارم - في أغلب الأحيان - كفل له تقديم صورة شديدة الوضوح غنية المحتوى، للعالم الإسلامي، كما يقول بروكلمان.
- 2 - اعتماده على الدراسة الميدانية المباشرة التي أدته إلى الاعتداد بذاته، وإدخالها طرفاً، مما أحدث شيئاً من التوازن في المضمون، وأبعد عن الكتاب شبح الجفاف الصرف أو العلمية البحت.

مثال للرحلة الأثنوجرافي

تمثل قيمة كتب الرحلات في أنها تمدنا بصورة حقيقية لشهود عيان عن الأحوال السياسية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والمناخية والدروب والمسافات، وما إلى ذلك من مكونات البلدان أرضًا وناسًا، بالإضافة إلى أنها توفر زادًا وفيرًا لتراجم كثير من العلماء الذين غفلت عن ذكرهم كتب التراجم أو لم توفهم حقهم من العناية.

والمقدسي مثال للرحلة الأثنوجرافي، وذلك لمزجه الجلي بين الرحلة والأثنوجرافيا⁽¹⁾ في وصفه إقليم المشرق؛ لابل اعتبره البعض واضع أساسيات منهج الأثنوجرافيا عند الرحالة المسلمين في العصور الوسطى.

وعندما يصف المقدسي المكان كأنه يرسم له لوحة دقيقة التفاصيل تبدو فيه المعرفة التاريخية والجغرافية، وتبين عن معرفة في فنون العمارة وذوق في تميز مواطن الجمال، وعلم في أحوال السكان، فهو ينقل مشاهداته وانطباعاته، وكأنه آلة تصوير تعكس الواقع بما فيه من متناقضات.

كان المقدسي بوجه عام دقيق الملاحظة، باحثًا ناقدًا، يتحرى تمحيص ما ينقل، وكان يُعنى بالأخبار الطريفة والعادات الشاذة. من ذلك ذكره أن جامع بغداد «كانت على أبوابه مواضع بالكري» أي يدفع القوم أجرًا لاستعمالها، ومنه أيضًا تلخيصه الكلام على عدن بأنها «دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب ومعدن التجارات».

مصطلح الإثنوجرافيا كلمة معربة تعني الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة ومجموعة التقاليد، والعادات والقيم، والأدوات والفنون والمآثرات الشعبية لدى جماعة معينة أو مجتمع معين، خلال فترة زمنية محددة، إنه الوصف الدقيق والمتربط لثقافات

(1) الإثنوجرافيا: وصف الشعوب هي الدراسة المنهجية للناس والثقافات.



المجتمعات الإنسانية، وبعبارة أخرى فموضوع الإثنوجرافيا يتعلق أساساً بوصف طبائع البلدان، وخصال أهلها وأسلوب حياتهم، وتعد مقدمة أبي عبد الله المقدسي لكتابه (أحسن التقاسيم) ما يعد توضيحاً مسهباً لطبيعة الموضوعات والمسائل التي تتصل بوصف الأقاليم وطبائع البشر وطرق الحياة، وهي كلها أمور رئيسية في الوصف الإثنوجرافي لأسلوب حياة مجتمع معين؛ ليس هذا فحسب، فربما يكون المقدسي أول من شعر بالحاجة إلى ضرورة إقامة علم يضطلع بتلك المهام لما له من نفع وفائدة للخاصة والعامة على حد سواء، وكتب المقدسي في دعوته لوجود هذا الفرع من فروع المعرفة يقول:

«أما بعد، فإنه ما زالت العلماء ترغب في تصنيف الكتب لثلاث تدرس آثارهم، ولا تنقطع أخبارهم، فأحببت أن أتبع سننهم، وأقيم علماً أحيي به ذكري، ونفعاً للخلق أرضي به ربي ووجدت العلماء قد سبقوا إلى العلوم فصنفوا على الابتداء ثم تبعتهم الأخلاف فشرحوا كلامهم واختصروه، فرأيت أن أقصد علماً قد أغفلوه، وأنفردت بغيره لم يذكره، إلا على الإخلال، وهو ذكر الأقاليم الإسلامية وما فيها من البحار والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة، وطرقها المستعملة، وعناصر العقاقير والآلات، ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألوانهم، ومذاهبهم ومكائيلهم وأوزانهم، ونقودهم ومصروفهم، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم، وما يحمل من عندهم وإليهم، وذكر مواضع الأخطار في المنارات، وعدد المنازل في المسافات، وذكر السباح والصلاب والرمال، والتلال والسهول والجبال، والحوابر والسماق، والسامين والرقاق، ومعادن السعة والخصب، ومواضع الضيق والجذب، وذكر المشاهد والمراصد، والخصائص والرسوم، والممالك والحدود والمصادر والجروم، والمخالف والزمرم،... والصنائع والعلوم والمباحس والمشاجر، والمناسك

والمشاعر، وعلمت أنه باب لا بد منه للمسافرين والتجار، ولا غنى عنه للصالحين والأخيار، إذا هو علم ترغب فيه الملوك والكبراء، وتطلبه القضاة والفقهاء، وتجبه العامة والرؤساء، ويتنفع به كل مسافر، ويحظى به كل تاجر».

وهكذا جاء في هذا النص إشارة جلية لكثير من الجوانب والعناصر الحضارية، المادية والمعنوية، التي يهتم الإثنوجرافيون بجمعها ووصفها، وتجد نظرة تكاملية تجمع بين البيئة والإنسان في وصف الجوانب الحياتية لقوم من الأقوام، هذا بالإضافة إلى الإشارة للقيمة العلمية لتلك المعلومات الوصفية عن الأقاليم والناس وأحوالهم، لقد أعطى المقدسي في عرض وصفه للأقاليم الكثير من طبائع البلاد وأخلاق سكانها ونظم حياتهم.

من زاوية أخرى، يشير لنا دكتور أنور عبد العليم في كتاب «الملاحة وعلوم البحار عند العرب» أن: أول إشارة ترد إلينا عن المرشدات الملاحية العربية نجدها في كتاب المقدسي «أحسن التقاسيم» من القرن العاشر الميلادي، وفيه يقول المؤلف في معرض الكلام عن المحيط الهندي «وأما أنا فسررت نحو ألفي فرسخ ودرت على الجزيرة كلها من القلزم إلى عبادان سوى ما توّهت بنا المراكب إلى جزائره ولججه، وصاحبت مشايخ فيه ولدوا ونشؤوا من رباين وأشاتمه ورياضيين ووكلاء وتجار، ورأيتهم من أبصر الناس به وبمراسيه وأرياحه وجزائره، فسألتهم عنه وعن أسبابه وحدوده ورأيت معهم دفاتر في ذلك يتدارسونها ويعولون عليها ويعملون بما فيها».

المقدسي ووصف بيت المقدس

لم يكتب في تاريخ الرحلات العربية وغير العربية إلى فلسطين، أجمل وأكمل مما كتبه الرحالة المقدسي البشاري عن بيت المقدس وباقي المدن الفلسطينية، فنصّه الاستثنائي عن إقليم الشام، المتضمن في كتابه الشهير (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، يعدّ



وثيقة جغرافية وتاريخية واجتماعية واقتصادية عن حال بلاد الشام عمومًا وفلسطين خصوصًا، في مرحلة غاية في الحساسية تعاصر تحوُّل بلاد الشام من الدعاء في المساجد للخليفة العباسي، إلى الدعاء للخليفة الفاطمي.

ويشير الكاتب زكريا محمد في مقال تحت عنوان (الجغرافيا المقدسي ونص الهوية الفلسطينية، مجلة الطريق، رام الله، العدد الثالث والعشرون، نيسان/ أبريل 2005)، إلى أن المقدسي البشاري يُعدّ أول من تحدث عن هوية فلسطينية في التاريخ العربي. ويستشهد ببعض نصوص كتابه (أحسن التقاسيم) لإثبات ذلك، ويقول في هذا السياق إن (لدينا نصًا واحدًا على الأقل يثبت أن فلسطين كانت ذات هوية منذ ألف سنة على الأقل، هذا النص كتبه واحد من أعظم مثقفي فلسطين على مرّ العصور وواحد من نخبة الثقافة العربية في عصرها الكلاسيكي، ألا وهو الجغرافي المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم).

يصف المقدسي «بيت المقدس» مسقط رأسه، ويفصل الحديث عنها، وعن المسجد الأقصى والصخرة المشرفة، وكانت المعلومات الدقيقة التي أوردها المقدسي، المصدر الذي استقى منه كل من كتب بعده عن بيت المقدس، لاسيما ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان.

يقول: «ليس في مدائن الكور أكبر منها، وقصبات كثيرة أصغر منها كاصطخر وقاين والفرما، لا شديدة البرد وليس بها حر، وقل ما يقع بها ثلج، وسألني القاضي أبو القاسم ابن قاضي الحرمين عن الهواء بها فقلت: سجسج (أي معتدل) لا حر ولا برد شديد، قال هذا صفة الجنة، بنياهم حجر لا ترى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها، ولا أعف من أهلها، ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها، ولا أكثر من مشاهدتها، عنبها خطير وليس لمنتفعها نظير، وفيها كل حاذق

وطيب، وإليها قلب كل لبيب، ولا تخلو كل يوم من غريب» .

ويقول:

«.. وكنت يوماً في مجلس القاضي المختار أبي يحيى بن بهرام بالبصرة، فجرى ذكر مصر إلى أن سئلت: أي بلد أجّل؟

قلت: بلدنا؟، قيل: فأياها أطيب؟ قلت: بلدنا، قيل: فأياها أفضل؟ قلت بلدنا، قيل فأياها أحسن؟ فقلت: بلدنا، قيل: فأياها أكثر خيرات؟ قلت: بلدنا، قيل: فأياها أكبر؟ قلت: بلدنا.

فتعجب أهل المجلس من ذلك، وقيل: أنت رجل محصل وقد ادّعت ما لا يقبل منك، وما مثلك إلا كصاحب الناقة مع الحجاج.

قلت: فأما قولي أجّل، فلأنها بلدة جمعت الدنيا والآخرة، فمن كان من أبناء الدنيا وأراد الآخرة وجد سوقها، ومن كان من أبناء الآخرة فدعته نفسه إلى نعمة الدنيا وجدها..، وأما طيب الهواء، فإنه لا سمّ لبردها ولا أذى لحرّها، وأما الحسن، فلا نرى أحسن من بنائها ولا أنظف منها ولا أنزه من مسجدها، وأما كثرة الخيرات، فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الأغوار والسهل والجبال، والأشياء المتضادة كالأترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز.

وأما الفضل، فلأنها عرصة (ساحة) القيامة ومنها المحشر وإليها المنشر، وإنما فضلت مكة والمدينة بالكعبة والنبي صلى الله عليه وسلم، ويوم القيامة ترفان إليها فتحوي الفضل كله، وأما الكبر، فالخلائق كلهم يحشرون إليها، فأى أرض أوسع منها؟» .

فاستحسنوا ذلك وأقروا به.

وينتهي حديثه عن بيت المقدس بالجزريات الدائمة ووجود طباخ وخدام، مرتبين،



يقدمون العدس بالزيت لكل من حضر من الفقراء، ويواصل حديثه عما يحيط بقصبة بيت المقدس، وأنه على فرسخ من حبرى جبل صغير مشرف على بحيرة صُغر وموضع قريات لوط، ثم مسجد بناه أبو بكر الصباحي، فيه موضع مرقد إبراهيم عليه السلام، وقد غاص في القُف نحو ذراع، يُقال إن إبراهيم لما رأى قريات لوط في الهواء، رقد ثم، وقال: أشهد أن هذا هو الحق اليقين.

ويتفرد المقدسي بتحديد القديس على الوجه التالي: «وحدُّ القدس ما حول إلباء إلى أربعين ميلاً، يدخل في ذلك القصبة ومدنها واثنان عشر ميلاً في البحر وصُغر ومآب، وخمسة أميال من البادية، ومن قبل القبلة إلى ما وراء الكسيفة وما يجاذيها، ومن قبل الشمال تخوم نابلس، وهذه الأرض مباركة، كما قال الله تعالى، مشجرة الجبال، زريعة السهول من غير سقي ولا أنهار، كما قال الرجلان لموسى بن عمران: وجدنا بلدًا يفيض لبنًا وعسلًا.

ويصف المقدسي الرملة بفلسطين، والتي يقال إنها بلد المقدسي أصلاً: «الرملة قصبة فلسطين بهية حسنة البناء خفيفة الماء مرية واسعة الفواكه جامعة الأضداد بين رساتيق جليلة ومدن سرية ومشاهد فاصلة وقرى نفيسة، والتجارة بها مفيدة والمعاش حسنة، ليس في الإسلام أبهى من جامعها ولا أحسن وأطيب من حواريتها، ولا أبرك من كورتها ولا ألد من فواكهها.

موضوعة بين رباطات فاضلة ذات فنادق رشيقة وحمامات أنيقة نظيفة ومنازل فسيحة ومساجد حسنة وشوارع واسعة وأمور جامعة، وخطت في السهل وقربت من الجبل والبحر، وجمعت التين والنخل وأبنت الزروع على البعل وحوت الخيرات والفضل، غير أنها في جزيرة من الوحل وفي الصيف ذريرة من الرمل».

وصف قبة الصخرة المشرفة

قال البشاري المقدسي: «في وسط المسجد الأقصى دكة، يُصعدُ إليها من الأربع جوانب في مراق واسعة، وفي الوسط: قبة الصخرة على بيت مئمن بأربعة أبواب، كل باب يقابل مرقة: باب القبلي، باب إسرائيل، باب الصور، باب النساء، يفتح إلى الغرب جميعها مذهبة، وفي وجه كل واحد باب ظريف من خشب التنوب مداخل حسن، أمرت بهن أم المقتدر بالله.

داخل البيت ثلاثة أروقة دائرة على أعمدة معجونة أجّل من الرخام وأحسن، لا نظير لها، وقد عُقدت عليها أروقة لاطية داخلها رواق آخر مستدير على الصخرة لا مئمن على أعمدة معجونة بقناطر مدورة فوق هذه منطقة متعالية في الهواء فيها طيقان كبار.

والقبة من فوق المنطقة طولها عن القاعدة الكبرى مع السفود في الهواء مائة ذراع، ترى من البعد فوقها سفود حسن طول قامه وبسطة، والقبة على عظمها ملبسة بالصفير المذهب.

والقبة ثلاث سافات: الأولى من ألواح مزوقة، والثانية من أعمدة الحديد قد شبكت لئلا تميلها الرياح، ثم الثالثة من خشب عليها الصفائح، وفي وسطها طريق إلى عند السفود يصعدها الصنّاع لتفقدوها ورّمها، فإذا بزغت عليها الشمس أشرفت القبة، وتلاّأت المنطقة، ورأبت شيئاً عجيباً، وعلى الجملة: لم أر في الإسلام ولا سمعت أن في الشرك مثل هذه القبة».

الخاتمة

لم نجد أنسب من كلمات الدكتور محمد محمود محمدين التي كتبها في مقدمة بحثه شمولية الفكر الجغرافي في كتب التراث نيسان/ أبريل 1984، لتكون خاتمة لما كتبناه



عن الرحالة الجغرافي شمس الدين المقدسي البشاري، لشمولية معانيها وما تحويه من مطالب مخلصه للنهوض بتراثنا العلمي، يقول فيها:

«تولي الأمم الناهضة تراثها العلمي اهتماماً كبيراً، لأنه ميراثها من فكر الأجداد، والمتنكر لتراثه أو الغافل عنه يصبح بلا هوية حضارية، إن الاهتمام بالتراث يجب ألا يقتصر على إعداد قوائم بكتب التراث وتحديد أماكن وجودها، أو السعي إلى مجرد اقتناء المخطوطات والتشدد بعناوين تلك الكتب أو الإشادة بمؤلفيها، وإنما يجب علينا أن نشجع الأبحاث الجادة؛ لأنه على الرغم من تعدد الدراسات وتنوع البحوث التي تناولت تراثنا الجغرافي الإسلامي، إلا أن هذا التراث مازال في حاجة ماسة إلى جهود كثير من المخلصين؛ لمراجعة ما كتب عنه مراجعة شاملة، وإعادة النظر في هذا التراث على أساس موضوعي؛ لإلقاء الضوء على ما غمض من جوانبه، وإبراز الإسهامات التي أثرى بها علماء المسلمين الفكر الجغرافي».

المصادر:

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي المعروف بالبشاري الطبعة الثانية، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبعة بريل 1906.
- رحلة المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، الطبعة الأولى 2003، تحرير شاعر لعبيبي.
- شمولية الفكر الجغرافي في كتب التراث، الدكتور محمد محمود محمدين، مجلة الدارة العدد الرابع، السنة التاسعة، نيسان/ أبريل 1984.
- الجغرافيون والرحالة المسلمون للمستشرق: م. ف. مينورسكي ترجمة: أ. د. عبد الرحمن حميدة.
- الجغرافيون العرب حتى القرن الثالث عشر الهجري: أ. د. عباس فاضل السعدي.
- مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة، الأردن وفلسطين عند الجغرافيين والرحالة العرب (المقدسي وابن جبير وابن بطوطة) للأستاذ الدكتور عبد الكريم خليفة. أيار/ مايو 1998.
- تاريخ معالم المسجد الأقصى المبارك في ضوء التراث الإسلامي المخطوط، إعداد يوسف بن محمد مروان بن سليمان الأوزبكي المقدسي.
- الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، د. ناصر عبد الرازق الموافي، كلية الآداب - جامعة القاهرة، 1995، دار النشر للجامعات المصرية - مكتبة الوفاء.
- بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول المجلد الثالث، 1404 هـ، 1984 م، المملكة العربية السعودية، وزارة التعليم العالي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، مركز البحوث.
- دراسات في الجغرافيا التاريخية لبلاد الشام: الأستاذ الدكتور صالح موسى درادكة، وزارة الثقافة عمان - الأردن.
- الرحالة المسلمون في العصور الوسطى: الدكتور زكي محمد حسن 1981.
- موسوعة رحلات العرب والمسلمين إلى فلسطين ج1، وصف فلسطين أيام الفاطميين تحقيق: تيسير خلف 2010.
- الملاحة وعلوم البحار عند العرب: دكتور أنور عبد العليم عالم المعرفة 1979.
- أدب الرحلات: د. حسين محمد فهميم عالم المعرفة حزيان/ يونيو 1989.
- الرحلة والرحالة المسلمون: دكتور أحمد رمضان أحمد، الأستاذ المساعد بكلية الآداب جامعة عين شمس.
- العلاقات العربية الهندية: تأليف العلامة سيد سليمان النوي، ترجمة وتقديم أحمد محمد عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى 2008.
- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة 1963.
- موقع الجزيرة نت، جمان أبو عرفة، 11/ 12/ 2020.